كلمة البروفسور سليم دكاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، خلال الطاولة المستديرة التي انعقدت بمناسبة افتتاح الصور الفوتوغرافيّة غير المعروضة سابقًا من مجموعة ابراهيم نعّوم كنعان، حول المجاعة الكبرى العام ١٩١٥، في حرم العلوم الإنسانيّة، شارع الشام، يوم الخميس الواقع فيه ٢٣ نيسان (أبريل) ٢٠١٥.

لا أستطيع أن أقول إنّنا نلتقي هنا بفرح لمشاهدة هذا العرض حول المجاعة الكبرى في العام ١٩١٥ وما خلّفته من آثار مدمّرة على الشعب المدنيّ، لا سيّما المسيحيّين في جبل لبنان وغيرها. نتطرّق اليوم، ونحن نضع ربطات العنق والشارات السوداء علامةً للحداد العميق، إلى هذه الطاولة المستديرة حول المجاعة الكبرى في لبنان العام ١٩١٥ لنُحيي معًا ذكرى هذه المجزرة الرهيبة التي فتكت بأجدادنا ومدننا وقرانا. وهذه الصور الـ ١٩ التي لم يتمّ عرضها قبلاً تبيّن بشاعة الإبادة في حقل الغاز هذا الذي أصبح عليه جبل لبنان في تلك الفترة. إلا أنّني لا أستطيع أن أقول هذه الكلمات حول هذا الحدث الرهيب الذي حصل في بداية القرن العشرين من دون أن أعبّر عن واجب شكر أساسيّ وآخر يتفرّع منه. الشكر الأساسيّ هو الشكر الذي أوجّهه من جهة إلى السيّدة نايلا كنعان عيسى الخوري ومن جهة أخرى، إلى إميل عيسى الخوري الذي قام بكلّ ما بوسعه لإنجاح هذا العرض والطاولة المستديرة، غير ساعٍ إلى مجدٍ شخصيّ بل إلى تكريمٍ بسيط يدين به إلى جدّه، كمصوّر للمأساة، وتكريمٍ كبير يدين به إلى شعبٍ استشهد وخطأه الوحيد هو أنّه سعى دومًا أن يكون حرًّا ويُنشئ رجالاً ونساءً أحرارًا ! شكري الثاني يتوجّه إليكم، أنتم الحاضرين هنا، للاهتمام الذي تولونه إلى موضوعٍ كهذا، ليس موضوعًا من التاريخ أو يُرمى في غياهب النسيان في التاريخ ولكنّه موضوع ما زال آنيًّا، موضوع مرّ على الماضي، حتّى أيّامنا، ليبقى دائمًا آنيًّا ومعاصرًا. إلى هذا الشكر، أودّ أن أُشرِك كلّ الأشخاص، بمن فيهم السيّدة والسادة المحاضرين، فبالنسبة إليهم، مجرّد إحياء ذكرى هذه المرحلة من التاريخ هو واجب أخلاقيّ وقضيّة إنسانيّة من أجل أن تكون الأجيال الجديدة أكثر تنبّهًا لهذا الحدث الذي ما زال يُثقل ذاكرتنا الجماعيّة والفرديّة.

حين ننظر إلى بعض الصور الفوتوغرافيّة غير المعروضة قبلاً، بفضل هذه المجموعة القيّمة للأستاذ ابراهيم نعّوم كنعان، نفهم أنّ ألام الشعوب والأفراد لا تعرف حدودًا لا في المكان ولا في الزمان. إنّ حقبة المجاعة الكبرى هي حقبتنا بحيث تبقى كأنّها كابوس لا يزال يقضّ مضاجعنا ويؤرق نومنا خصوصًا أنّ تكرار هذه المجاعة الكبرى، كسلاحٍ للمجاعة، يتمّ من حولنا، في بلد قريب وكأنّ الأنظمة السياسيّة في الأمس تنقل غضبها ضدّ المدنيّين المتروكين لمصيرهم وضدّ شعبٍ يجري الإقتصاص منه حيث لا

تستطيع أن تصبّ هذه الأنظمة غضبها هذا ضدّ الميليشيات المسلّحة. تكرار نواجهه حولنا ولكنّه يكاد يدنو منّا بقدر ما إنّ مصالح السياسات في المناطق الإقليميّة والدوليّة مستعدّة أن تضحّي بشرائح كاملة من الشعب لتتقاسم العالم بتبنّيها المبدأ المعروف في السياسة "عدم رؤية الأمور وعدم الإصغاء إليها". بين تهاون الإمبراطوريّة الكاثوليكيّة الأوستراليّة والهنغاريّة، وكذلك الألمان إزاء المأساة وقساوة العثمانيّين، كان من الواضح أنّ كسب الحرب كان يتمّ بكلّ أنواع الأعمال الحربيّة الممكنة.

ولكن، بالنظر عن كثب، لم تكن السياسة هي وحدها التي تدمّر المبادئ الأخلاقيّة. المصرفيّ والتاجر والمتملّك وأصحاب الإمتيازات كانوا يعلمون كيف يستفيدون ويجعلوا من المجاعة الكبرى دربًا سهلة للاغتناء ولمضاعفة ثرواتهم. بالإضافة إلى ذلك، أعود إلى روايات جدّتي التي كانت تروي لنا كيف أنّها، في إحدى أيّام آذار (مارس) أو نيسان (أبريل) ١٩١٥، إستيقظت على هدير آلةٍ كبيرة ضخمة تَبيَّن أنّها إجتياح للجراد القادم من صحراء ليبيا : خلال أسبوعٍ واحد، التهمت هذه الحشرات كلّ الزرع اليانع الذي نبت في الأراضي الساحليّة في مناطق الفتوح وجبيل بحيث كان يتوجّب ترك الأرض والتوجّه إلى مكانٍ آخر لكي لا يعاني الناس من هول الكارثة.

المجاعة الكبرى هي الموت نعم ولكنّها الإعدام البطيء والقاضي ... ما نراه في الصور هو مثال على ما عانى منه أجدادنا من آلام مبرحة لا توصف. نستطيع هنا أن نتكلّم عن آلام تكفّر عن الذنوب من أجل شفاء شعبٍ بكامله. غالبًا ما يعلّمنا الألم الصبر والتواضع. أودّ أن أكون مقتنعًا أنّ أيًّا من الآلام التي نعرفها وأيًّا من المصاعب التي نمرّ بها هي عبثيّة. الألم يهذّبنا وهو يجعلنا نكتسب صفات كالصبر والايمان وقوّة النفس والتواضع... هل كنّا متنبّهين خلال قرن بكامله إلى هذا الجانب من الألم الذي عانى منه أجدانا ؟ هؤلاء كانوا، بين المقاومين، من حملوا صليبهم بشجاعة. يتوجّب علينا أن نكرّمهم، هؤلاء الذين تحوّلت أجسادهم إلى هياكل عظميّة نخرها الجوع وجثثًا متروكة على قارعة الطرقات. كما يتوجّب علينا أن نكرّم الآخرين ممّن هم حزبيّين وأشخاص المقاومين وعمّال إنقاذ ومواطنين... فلنقتدِ ونتعلّم من مثالهم واستشهادهم وايمانهم وهكذا تصبح حياتنا فعل مقاومة دائم.